التحليل النفسي لجاك لاكان

(تصورات نظرية جديدة واستنتاجات)

سناء عيسى محمد الداغستاني

كلية الآداب – جامعة بغداد

أهمية البحث :

يسمونه بعض المنظرين (فرويد الفرنسي) ، والصحفيون أعلنوا أنه ينبغي أن يطلق على عصرنا عصر لاكان .

أن انتشار مفاهيم التحليل النفسي الفرويدي في فرنسا مدين إلى لاكان كما يؤكد أستاذ الأدب الإنكليزي بوفالو شنايد رمان "لقد جعل لاكان من التحليل النفسي المادة الذهنية السائدة في فرنسا" (ليبين، ١٩٩٧ ، ص١٩٧-١٩٨) .

لقد قُبلت أفكار لاكان بكل غبطة وسرور في مدة ما بعد الحرب الثانية فالندوات التي ينظمها كانت يحضرها فلاسفة مثل (ريكبور) و (ميرلولونتي) و (التوسير) . ففي حياة لاكان تأسست المدرسة اللاكانية للتحليل النفسي وهو نفسه أصبح نوعاً من البطل القومي الذي وقف من دون مقاومة أو مهادنة ضد علم النفس الأمريكي في فرنسا وضد التحليل النفسي المؤسساتي الذي كان منتشراً على وجه الخصوص في الولايات المتحدة الأمريكي . (المصدر السابق، ص١٩٨) .

قرأ البض كتبه والبعض الآخر أكتفوا بتصفحها وبعضهم حضروا حلقاته الدراسية المشهورة كل هؤلاء علموا بأن لغة لاكان ليس لغة الناس فهي توتر أعصاب البعض وتسحر الآخر ، فاللغة تقع في صميم عمله لأنها حسب رأيه في صميم الأشكالية الإنسانية ، أسلوبه مترابط مع فكر التحليل النفسي بمطابقته مع

أحدث الأكتشافات اللسانية ، وقد ركز على بنية اللغة اللاواعية التي تعبر عن نفسها ضمن الأحلام ، كما ركز على الخطاب اللاواعي . (شملا، ١٩٨٨، ص٦).

أن المجال الفكري الذي يتحرك فيه لاكان يصل بينه وبين الفلسفة ولاسيما فيما يتصل باستخدامه الديالكتيك واللغة التي تتعرض للصلة بين الفرد والعالم كما ضمن نظريته جوانب الفينومينولوجيا الوجودية عند (سارتر) فضلاً عن نيبوية (دي سوسير) و (جاكبسون) و (ليفي شتراوس) إذ أكد بنية العناصر اللغوية متأثراً بكل هؤلاء فهي تعدّ المادة التحليلية للمرضى النفسيين كما أنها تميز كل مريض عن الآخر ، بتعبير آخر أن العناصر اللغوية تفقد وتشوه وتُبدل في عملية بناء الأعراض من ناحية وذاتية المريض كمتحدث من ناحية أخرى (فورستر، ١٩٩٩ ، ص٢٣) (كيرزويل، ١٩٨٥، ص١٥٦) .

ومن الضروري أن نذكر أن السمينارات التي أقامها لاكان ، كانت تتحول إلى نوع من المواجهة حيث ينتقل بحديثه من النقد الأدبي إلى الفلسفة وإلى التحليل النفسي على نحو لا يقتصر على التشويق فقط وإنما تضُيف طابع الحيرة والانتقاد ، إذ كان يقفز من صيغ رياضية منطقية عند سويفت Swift وكانط Kant ودي ساد deSade ، أو ينتقل بين تداعيات أو ديبيسة حرة وحدوس شعرية وتعبيرات أخرى لينتهي بدعوة الحضور إلى تحليله هو . فكان أداؤه في الحلقة الدراسية أداءاً زاخراً بالبدائع اللغوية أي بالكلمات التي يسكها سكاً والمعاني التي تتجاوز حدود الموجودة في اللغة ونذكر مثلاً السمينار الذي عنوانه Encore (أيضاً / بعد) والتي قام بها عام ١٩٧٥ هي أبرزها في تلاعبه بالكلمات والمعاني (كيرزويل، ١٩٨٥ ، ص١٦٣) .

أن الماعات لاكان تثري اللغة الفرنسية وتخلق لغة لا يمكن ترجمتها وهذا السبب الذي يجعلنا ننظر إلى عمل لاكان بوصفه اختراعاً جديداً لعمل فرويد ، فاللغة عنده هي القاسم المشترك الذي يصل بين مختلف جوانب السياسة والتحليل النفسي والنقد الأدبي والفلسفة عند لاكان قبل أن يصبح علم اللغة

البنيوي أداةً أثيره في تحليل الواقع . إذ مضى تطور هذه النظريات خطوة خطوة مع عودة لاكان ، العودة الشهيرة إلى فرويد ، فكان المحللون يقرأون فرويد ويناقشونه ويستشهدون به إلا أن لاكان أضفى على هذه القراءة خاصية جديدة تماماً (فورستر، ١٩٩٩، ص٢٣) .

فلاشك أن هذا الجانب يستحق الطرح والمناقشة الموضوعية فيما يتصل بنظرية لاكان وتحليلاته بكل ما يتضمنه هذا السياق من تداخلات ، تطرحها الباحثة هنا بشكل مفصل تعريفاً منها لنظرية لاكان في التحليل النفسي ولتكشف ما حدث من تجديدات للمفاهيم الفرويدية الأصلية .

الإطار النظري :

قبل الدخول في عرض لأهم المفاهيم النظرية الخاصة بـ لاكان سنقوم بسرد تاريخي بأهم الأحداث في حياته .

نبذة تاريخية عن حياة جاك لاكان : Jacques Lacan

ولد جاك ماريه أميل لاكان في باريس ١٩٠١ وأنهى دراسته الثانوية في ١٩١٩ وقد سُرح من الخدمة العسكرية بسبب بنيته الضعيفة ، درس الطب في باريس ١٩٢١ ، بدأ بعدها في التدريب الأكلنيكي على الطب النفسي ، في هذه الأثناء تزايد اهتمام لاكان بالسريالية وإلتقى بسلفادور دالي ١٩٣٢ ، نشر أطروحته في الدكتوراه عن ذهان البارانويا وعلاقته بالشخصية وأرسل نسخة منها إلى فرويد وأنضم إلى جمعية باريس للتحليل النفسي كعضو مرشح في ١٩٣٤ . وقدم بعدها بحثه عن مرحلة المرآة إلى المؤتمر الرابع عشر للرابطة الدولية للتحليل النفسي وحصل على العضوية الكاملة في جمعية باريس للتحليل النفسي . وحقق في ١٩٣٦ انطلاقته في طريق التحليل من خلال رسالته (وراء مبدأ الواقع) التي كانت صدى لعنوان كتاب فرويد (وراء مبدأ اللذة) فلقد تناسى في هذه الرسالة التركيز المعتاد على العاطفة والانفعال وركز على الشعر اللاإرادي Involuntary poetry وعلى لغة البارانويا ليكشف عن الكيفية التي

تتحول بها الأفكار العدوانية إلى فصل وكانت هذه الخطوة الأولى للدلالة على اهتمامه الباكر بالجدل بين اللغة والتحليل النفسي . (أفاتز، ١٩٩٩، ص٧-١٠).

بَدت هذه الوثبات غريبة على المحللين النفسيين والمفكرين الأمريكيين بنزعتهم غير الشعرية التي تجافي بينهم وبين الغوص في الأعماق الشعرية لفكر لاكان ، إذ لا يعدّ لاكان المحلل النفسي طبيباً بالمعنى التقليدي للكلمة لأن التحليل النفسي عنده طريقة أو إجراء (لتعميم اللفظية على اللا وعي) . (ليبين، ١٩٩٧، ص١٩٧) فكل هذا وفي عام ١٩٦١ أدى إلى طرد لاكان من رابطة التحليل النفسي الفرنسي لأنه برز متمرداً ينسف أسس حركة التحليل النفسي المقوننة . نشر أبحاثه في مجلد ضخم في ١٩٦٦ ثم نسخ من سمينار ه لعام ١٩٦٤ في ١٩٧٣ ، وزار الولايات المتحدة ١٩٧٥ وحاضر في جامعة بيل وقابل تشومسكي وفي ١٩٨١ توفي لاكان في باريس عن ثمانين عاماً بعد حياة زاخرة بالعطاء . (أفاتز، ١٩٩٩ ص١١) (ليبين، ١٩٩٧، ص١٩٨) .

يمكن أن نطرح هنا سؤال في صلب الموضوع وهو ، ما هي التعديلات الرئيسية التي أدخلها لاكان على تحليل فرويد النفسي الكلاسيكي ؟

ينطلق لاكان من فكرة إلى اللا وعي (هو كنتيجة إجمالية للكلام على الذات) فاللغة بالذات هي التي تخلق المقدمات لأجل المعرفة العقلانية للنفس وتشكل مجال اللا وعي والذي ينتظم بصفته لغة . (Weisman, 1965, P.1345) .

أن الذات عند لاكان هي ذات اللاوعي التي ينكشف وجودها في تقطعات الكلام وليس في تقطعات المتكلم نفسه بل الآخر ، فهي لا تقترن مع ذات أخرى بل مع ذات مدركة ، عدا هذا أن الذات حسب كلمات لاكان تولد فقط عندما يتبدى المعني في حقل خطر الآخر (Cole, 1971 , P. 199) . فالذات محددة بالآخر أو بحديثه ، فلا تكتمل الذات من دونه ، واللاوعي مركب مثل اللغة وهو كلام

الآخر. وبهذا تكون هذه المسلمات هي إعادة التفكير وتأمل لاكان في العديد من أفكار ومفاهيم فرويد .

لقد لجأ فرويد إلى (مبدأ اللذة) وإلى مبدأ الواقع بينما تكلم لاكان على الرغبة أكثر من اللذة فيعتقد أن اللذة هو مبدأ الاتزان الذي لا يؤدي دوراً جوهرياً في حياة الإنسان . وإذا كان فرويد يعارض مبدأ الواقع مع مبدأ اللذة فأن الواقع كما يرى لاكان تنتزع عنه السمة الجنسية في التحليل النفسي الفرويدي ، يعني أن الأنا العليا تعتمد على الدافع الحيوي (الليبيدو) ذي السمة الجنسية . هنا تبدو مفارقة عند لاكان فأن الليبيدو عنده هو نشاط الإنسان النفسي . (ليبين، ١٩٩٧، ص٢٠٠) .

ومن جديد تفسيرات لاكان لرغبات الإنسان هي أن هذه الرغبات يُنظر إليها ضمن تركيب الدال والمدلول (الشكل والمضمون) . أن التفسير الفرويدي للرغبات والأهواء يتحدد في وظائفه البيولوجية ، بينما تتخذ أشكالاً أخرى من قبل وجهة نظر لاكان حيث يتم إدراك رغبة الذات من خلال رغبة الآخر ، وبهذا فالرغبة راسباً متبقياً للتأثيرات التي يحدثها الآخر في الذات . (نفس المصدر السابق، ص٢٠١) .

أما المستوى الرمزي للنفس البشرية عند لاكان يكون هو المستوى الأعلى وليس السفلي كما عند فرويد والذي له علاقة مباشرة بالمحيط الاجتماعي والثقافي . وإذا كان فرويد قد قسم النفس البشرية بثلاث مستويات (الهو، والأنا، والأنا العلي) فأن لاكان ينطلق من التقسيم الثلاثي لتركيب الذات إلى واقعي ، وتخيلي ، ورمزي .

وخلافاً لمؤسس التحليل النفسي الذي يطابق اللاوعي (اللاشعور) مع الهو، فأن لاكان يقرن هذه الظاهرة مع المستوى الرمزي من النفس البشرية ، فالهو والأنا العليا كما لو كانت تتبادلان الأمكنة ، فالرمزي يتطابق مع المحيط

الاجتماعي والثقافي والذي يعمل على تطور الفرد كذات ويحمل الهو الفرويدي سعة إلا أنه لا يمتلك أية وظيفة رمزية .

كما يعالج فرويد المعنى الرمزي اللاواعي والمختفي وراء اللغة العادية. أما عند لاكان فأن اللاوعي هو اللغة ذاتها ، أن وجهة النظر هذه نجد أنصاراً لها على الرغم من أن بعض الغربيين يجدون أن اللاوعي هو التجربة المكدسة التي تنتظر اللحظة الحاسمة التي تعبر بها عن ذاتها (Spence, 1982, P. 41) .

وبهذا فأن هذه التفسيرات تحمل لاكان على أعطاء مفاهيم وتفسيرات جديدة ومتفردة للتحليل النفسي . ومن هنا سنتناول أهم مفاهيم لاكان ونطرحها كل واحدة على حدة وهي :

١ - مرحلة المرآة .

٢ - الرغبة .

٣ - الدال والمدلول(*) (توظيف لاكان لهما) .

٤ - التقسيم الثلاثي (الخيالي ، الرمزي ، الواقعي) .

١ - مرحلة المرآة : Mirror stage

تتحدد مرحلة المرآة في معجم مصطلحات التحليل النفسي بتكوين الكائن الإنساني التي تقع ما بين الشهر السادس والشهر الثامن عشر من الحياة ، إذ يستبق الطفل الذي مازال في حالة عجز وفقدان للتأزر الحركي بشكل خيالي Imaginary استيعاب وحدته الجسدية والسيطرة عليها ، يقوم هذا التوحيد الخيالي على التقمص بصورة الشبيه بعدّه شكلاً كلياً ويتوضح هذا التوحيد ويتجسد من خلال التجربة المحسوسة التي يدرك الطفل من خلالها صورته

(*) الدال والمدلول هنا نوظفها كما أراد لها لاكان في دراساته التحليلية النفسية وضمن سياقها باجتهاداته المختلفة عن "سوسير"

الذاتية في المرآة التي تشكل فيما بعد الأنا عند الطفل . (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، ص٤٦٨) .

أن مفهوم مرحلة المرآة هو من أقدم إسهامات لاكان حيث قدمه إلى المؤتمر الدولي للتحليل النفسي المنعقد في مرياتياد وعام ١٩٣٦ . إذ وضح فيه لحظة رؤية الطفل الرضيع إلى صورته في المرأة وهو الذي لم يتحكم بعد في مشيته حيث تغمره بهجة عارمة ، فمن خلال إيماءاته واللعب والحركات التي يقوم بها يؤدي إلى مقارنة جسده مع الأشخاص الآخرين والأشياء التي تقف بجانبه . أي أن رد الفعل الأول للطفل إزاء صورته المنعكسة على المرأة تكشف عن الفاعلية الليبيدية التي تضمنتها دراسات فرويد عن النرجسية والاشطار . فهذه اللحظة هي بداية تعرف الطفل على نفسه من حيث هو كيان عضوي ، وهي العتبة التي يعبرها الطفل إلى ما سوف يكون (لومير، ١٩٨٨، ص١١٨) (كيرزويل، ١٩٨٥، ص١٥٥) فهو يتماهى في صورته مما يؤدي إلى تشكيل الأنا مباشرة (كأنا مثالي) وهي التجربة الأولية ذات الطابع الخيالي ويكون أصل للتماهيات الثانوية الأخرى .

النقطة الأساسية هنا هي موضعه سلطة الأنا قبل تحدده الاجتماعي أي قبل أن يدخل ضمن كوكبه الأسرة والمجتمع ، ضمن خط تخيلي لا يمكن أن يختزله الفرد . (أيغلتن، ١٩٩٢، ص١٧٩) .

كما تتخذ طابع مرحلة المرآة الحتمي والذي يؤسس علاقة تخيلية ثنائية الجانب ، فيتكون الأنا كآخر (وهي الأم) ويتكون الآخر كأنا ثانية بمعنى آخر تصبح هذه المرحلة أساس للعلاقات الشخصية بكل الآخرين ووضعاً للنرجسية ومصدراً للعدوانية (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، ص٤٦٨) (كيرزويل، ١٩٨٥، ص١٥٥) . فمرحلة المرآة دراما تتسارع تبدأ من النقص في الهوية المستلبة إلى دراما تدبر الذات الساقط في وهم التماهي المكاني ، أي تتابع من صورة مجزأة للجسد إلى تقمص شكلها أخيراً وهي الهوية التي ستطبع تطور الذات

الذهني . يظهر هذا الجسد المجزأ في الأحلام ظهوراً منتظماً عندما تمس حركة التحليل مستوى معين من التفتت العدواني لدى الفرد في إعراض الفصام أو الشيزوفرينيا والهستيريا . (كيرزويل، ١٩٨٥، ص١٥٥) (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، ص٤٦٨) (مجلة العرب والفكر العالمي، ١٩٨٨، ص١٢٢) .

وبدخول الطفل إلى المستوى الرمزي (الذي ستفصله لاحقاً) يبدأ الطفل الدخول إلى كوكبه العائلة والمجتمع وتبدأ الذات الاجتماعية بالتكون حيث تنتهي مرحلة المرآة من خلال التماهي بصورة القرين أو الآخر ضمن عقدة أو ديب غير أن التوضيف الليبيدي لهذه اللحظة المرأتية تختلف دينامياً عن الليبيدو الجنسي تلك التي فُسرت على أنها غريزة تدمير وموت في التحليل الفرويدي للنفس البشري .

٣ - مفهوم الرغبة : Desier

لقد أعاد لاكان تفسير مفهوم الرغبة والتي كانت تتلخص عند فرويد أنها أحد قطبي الصراع الدفاعي حيث تنتزع الرغبة اللاواعية إلى أن تتحقق من خلال استرجاع الإشارات المرتبطة بتجارب الإشباع الأولي تبعاً لقوانين العملية الأولية (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، ص٢٦٠) . إذ جهد لاكان في إعادة محورة الاكتشاف الفرويدي حول فكرة الرغبة التي يجعلها في مكان الصدارة في النظرية التحليلية ، حيث ميز بين الرغبة والحاجة والطلب حيث تستهدف الحاجة موضوعاً نوعياً تجد منه إشباعاً لها ، أي من خلال الفعل النوعي الذي يشبع الموضوع الملائم (كالطعام مثلاً) . أما الطلب فينصب على موضوع ما ، هذا الموضوع يظل ثانوياً بالنسبة للشخص ذلك أن الطلب المعلن هو موضوع طلب للحب .

أما الرغبة فهي المسافة الفاصلة بين الحاجة والطلب فهي لا ترد إلى الحاجة المحضة لأنها ليست في جوهرها علاقة بموضوع نوعي مستقل عن الشخص ، بل هي على علاقة مع الهوام (هو سيناريو خيالي يكون الشخص

حاضراً فيه ، بطريقة تتفاوت في درجة تحويرها بفعل العمليات الدفاعية لتحقيق رغبة ما لا واعية) (المصدر السابق، ص٥٧٢) . كما أنها غير قابلة لأن ترد إلى الطلب بمقدار ما ترمي إلى فرض ذاتها من دون أن تأخذ في الحسبان لغة الآخر ولا واعية .

الرغبة هنا صورة عقلية لموضوعات الإشباع ، كما تتضمن الرغبة في الآخر دائماً وتتطلب علامة تُعرف ، كما يقسمها لاكان إلى عناصرها الواعية واللاواعية (كيرزوبل، ١٩٨٥، ص١٦٢) (إبراهيم، بدون سنة ، ص١٩٨) .

أن التحليل النفسي حقل كلام وحده أكده لاكان وقبله فرويد في دراساته غير أن لاكان ربط اللاشعور باللغة فأعطاه مفتاحاً جديداً فيقول (أن ما تكشفه تجربة التحليل النفسي هو بنية اللغة بكاملها) . (مجلة الفكر العربي المعاصر ، ١٩٨٣، ص٥٧) فالأمر يتعلق بتوصلنا إلى لغة رغبتنا ، فالإنسان في تكلمه عن مكبوتاته يُبعد عن نفسه المرض وخاصة المواضيع التي أعُيقت عن التعبير أو الأشباع فأصبحت مواضيع ضمن حيز الرغبة وتأخذ أشكالاً عدة (فالرغبة تكمن في الفكر) (حب الله، ١٩٨٨، ص٦٣) .

فالرغبة الإنسانية عند لاكان تتشكل ضمن تاريخ وبالرجوع دائماً إلى رغبة الشخص المرغوب فيه ، وهي الأم عموماً حيث يكون طلب الطفل مستمراً يؤدي إلى اعتماد مطلق على الأم ، فيكون كل مطلبه هو جواب أمه التي تمنحه حبها من دون انقطاع . ثم يتمكن الطفل من التوصل إلى رغبة مستقلة من خلال وعيه بأن لدى أمه حباً خارجاً عنه وهو (الأب) وهذا لا يكتشف إلا ضمن خطاب أمه وضمن أحاديثها معه يومياً ، فالذات تتعلق بما سمعته في طفولتها (شملا، ١٩٨٨، ص١٥٠) حيث تتمظهر الرغبة اللاواعية في أشكال مختلفة عند دخولها ضمن كوكبة العائلة والمجتمع وقيمه وأنظمته . فيعتمد التحليل على خطاب معين كان العمل جارياً به خلال الطفولة وبقي بصورة لا واعية ولا تزال تحدد سلوكياته ((على اعتبار أن كل المواضيع ما هي إلا بدائل هذا الموضوع

الأساسي الذي يدخل في تركيبه الهوام المؤسس)) (حب الله، ١٩٨٨، ص٥٦) والبدائل التي أوجدها لاكان في بحثه عن الرغبة هي أن اللغة عندما تتكون عند الفرد تكون وظيفتها تمثيل أو حمل الرغبة البشرية بقصد إظهارها فأي كبت يظهر مع تعلم الإنسان اللغة فيبدأ عند بدء ترميز الرغبة بالصوت أو اللغة .

فيرجع لاكان في أغلب الأحيان إلى لعبة من لعب الأطفال أوردها فرويد ضمن مؤلفه (وراء مبدأ اللذة) لاحظ طفلاً يمارس نفس اللعبة من دون انقطاع وهي أظهار وإخفاء بكرة كانت في متناول يده حيث أصبحت اللعبة تتمحور في حضور وغياب وبالعكس وقد ربطها فرويد بغياب وحضور الأم فكان يكرر (منصرفة ، هنا) (شملا، ١٩٨٨، ص٩٨) (مجلة الفكر العربي المعاصر، ١٩٨٣، ص٤٣).

لقد أعاد لاكان تناول هذا التحليل في أن الأم في الشهر الثامن للطفل هي موضوعه المهم فعندما تغيب عنه يشعر بالضياع جزء منه فيكرر هذا الضياع بواسطة موضوع بديل وهو البكرة وبواسطة اللغة عبر تناوب (منصرفة ، هنا) ، فنجد ميل الذات إلى ترميز ما لا تستطيع الإحساس به وإلى تكراره ما لا نهاية له فمن خلال اللغة يعبر الإنسان عن رغبته التي ينعتها لاكان ((بالعصفور السماوي)) (مجلة الفكر العربي المعاصر، ١٩٨٣، ص٤٣) .

فالرغبة البشرية تتحقق عبر موضوعات بديلة إذ يُعبر عنها على شكل جمل تصوغ طلبات ضمن اللغة وعبر السطور وتكون ممثلة من طرف دوال تجهل الذات أهميتها . (شملا، ١٩٨٨، ص١٢) أو لا تعلن عن نفسها جهراً فيصبح ضمن خطاب الفرد يحرضه في لغة هلاسية يبوح بها في لحظات الإنقطاع عن الرقابة التي تصده بأشكال ومستويات عدة ، فالفرد مدفوع بنوايا سابقة لا يعرف حقل حضورها وعملها ولا يتم الكشف عنها إلا من خلال الدخول في حقل خطابه الخاص .

فالذكرى مكبوته ، لكن المكبوت يميل بالرجوع إلى حياة الذات بشكل أو بآخر عن طريق اللغة ، ستمثل الذكرى عرضاً من الأعراض المرتبطة بها ويعرف لاكان العرض بعدّه دالاً لمدلول مكبوت ومطرود من وعي الذات ولكي يختفي المكبوت لابد أن يعثر على كلمات تمثله أي أن يحصل المكبوت على تعبير شفوي . (شملا، ١٩٨٨، ص١٣) وهذا ما يؤكد عليه لاكان من أن للتحليل النفسي وسيطاً وحيداً هو كلام المريض .

٣ - الدال والمدلول :

يعدّ لاكان الآليات التي تعمل ضمن الأحلام وفلتات اللسان والنكات هي آليات لغة ، إذ تأثر برومان جاكبسون صاحب النظرية اللسانية في تفسير آليات اللغة عند المريض . وبهذا أتاح علم اللغة البنيوي قراءة جديدة يقيمها لاكان على أساس التوسط الجدلي بين الثنائيات التي ينطوي عليها هذا العلم تلك الثنائيات التي تنتظم في علاقات بين الدال (صورة الصوت) والمدلول من ناحية وبين اللغة Language (النسق اللغوي) والكلام (خطاب الفرد من ناحية ثانية وبين المستويات الفونيمية (المميزة) للكلام والأنساق المجردة للعلاقات من ناحية ثالثة وبين الاستعارة والكناية من ناحية رابعة . فأصبح بأمكانه توسيع المعاني المتنوعة المقبولة لأحلام فرويد الخاصة حيث قام بتأمل العلاقات التي تنطوي عليها سلاسل الدوال في هذه النصوص لأن بنية السلسلة الدالة تكشف بوصفها وجوداً لغوياً عن إمكان استخدام اللغة للدلالة على شيء يختلف كل الاختلاف عما تنطقه اللغة . (كيرزويل، ١٩٨٥، ص١٥٩) .

فالدال في التحليل النفسي قابل لحمل بعض الأصداء اللاواعية ولاسيما لدى ظهوره ضمن بعض الظواهر مثل الحلم وزلة اللسان والنكتة .

يمكننا هنا طرح سؤالاً دقيقاً ، ما هي وظيفة الدال والمدلول أو وظيفة ذلك الجزء من السلسلة الصوتية التي ننطق بها أو نسمعها ؟

أن الكلمة تظهر ضمن دروس اللسانيات بعدّها حقيقة ذات وجهين وجه الدال ووجه المدلول ، فيكون الدال ضمن كلمة "شجرة" مثلاً هو الصورة السمعية أي الأثر النفسي الذي يحدثه الصوت وليس الصوت المادي وهي شيء فيزيقي بحت أما المدلول فهو المفهوم والفكرة وهما ليس خارج اللغة وإنما يشكلان مظهراً من مظاهرها ، فمن دون الدال التي تنظم المادة الصوتية ضمن كلمات وجمل لن يكون هناك فكر أطلاقاً . (شملا، ١٩٨٨ ، ص٦) .

وتشير هنا إلى عمق التوجه اللاكاني حول الكلام : وهو حينما نتكلم لا ننقل المعلومات التي نعتقد أننا نعطيها حول الموضوع بصورة معيارية فبالإمكان أن نثير في ذهن المستمع دلالات مختلفة قد تخرج من معياريتها اللفظية وتمارس نوع من الإيحاءات المتعددة . فإذا قلنا "فرس" فبامكاننا أن تستمد في ذهن المستمع إلينا عالم بأجمعه من عوالم الفروسية ، فخطورة الكلام هنا في تأويله ، وهذه الأصداء أو التضمينات اللغوية قادرة على الإيحاء بدلالات عديدة وأصداء لا واعية . فكل صاحب خطاب (المريض) ينطوي على خطابه الخاص حيث أطلق أنصاره عليها "الكائن الكلامي" (مجلة العرب والفكر العالمي، ١٩٨٨ ، ص٩٧) . فالكلمة لا تشير إلى موضوع دقيق جداً أو دلالة واحدة وحيدة ولكن أصداء لا واعية عديدة كما ذكرنا سابقاً . وبهذا إذا تتبعنا سلسلة الدوال فأننا نقترب من رغبة المريض اللاواعية وهي رغبة يحدد كبتها عرضة العُصابي ، من هذا المنطلق يتشكل أساس التكنيك التحليلنفسي وبهذا فأن فكرة التداعي الحر التي تسمع للمريض للبوح بكل ما يريد من دون أن يكترث ما إذا كان ذلك يبدو غير لائق أو خالياً من الأهمية ، أن تداعيات الذات تسمح لنا بالاقتراب من رغبتها اللاواعية ، (شملا، ١٩٨٨ ، ص٩) (ايغلتن ، ١٩٩٢، ص١٨٢).

هناك دالّ يتنقل يكتسب معاني مختلفة يتحرك من نقطة إلى أخرى في شبكة معقدة متوسط أنواعاً متباينة من القوى وتحدد الذوات فيما تفعله وتكونه

(بوبي، ١٩٩٩، ص١٠٥) فإذا كان الدال يلعب والمدلول ينزلق تحته فأن اللاشعوري يتكلم باللسان الفطري .

أما النظرية اللسانية فيوجد محوران كبيران للغة محور المركب ومحور الاستبدال إذ تعدّ التداعيات التي ينتجها الاستبدال ذات طبيعة استعارية أما التداعيات ضمن محور المركب فهي ذات طبيعة مجازية .

لقد أكتسب مفهوما الاستعارة والمجاز المرسل أهمية كبيرة ضمن العلوم الإنسانية ولقد أظهر العالم جاكبسون نفسه أن بعض الاضطرابات النفسية تفُقدنا إمكانية تركيب بعض الكلمات في جمل وأعطاء مرادفات لبعض الكلمات الأخرى أي أن تداعيات المريض تحمل طابعاً استعارياً أو مجازياً . فيبدو أن التحليل النفسي كان الوحيد الذي أعطى هذا التقديم لبنية اللغة الأساسية "وحالما نتعرف على أهمية الاستعارة والمجاز في التحليل نكون قادرين أن نفهم بأنهما لا يعملان نفس الوظيفة ، أعجاز المرسل هو تنّقل الرغبة المستمر على طول سلاسل التداعيات وهي وسيلة الرغبة للأفلات من الرقابة . ثم ينبغي أن نتجه بالاتجاه المعاكس (في التحليل) والصعود من دال إلى دال قصد الاقتراب من التعلقات الأولى للرغبة ، فالاستعارة تعطي لرغبة الشخص بل حتى للكثير من رغباته تعبيرها الصادق ، ومن هنا اجتياز لحاجز الكبت فالاستعارة خالقه المعنى ويمكن إظهار ذلك من أية استعارة شعرية . (شملا، ١٩٨٨، ص١٥-١٧) (حب الله، ١٩٨٨، ص٦٨) (Pyle, 1997, P. 23) .

ومن ثم فأن الخطاب الذي جربه جاك لاكان بعدّه محللاً نفسياً يختلف عن خطاب اللسانيين ، أنه يظهر ضمن التحليل النفسي وجهاً آخر أي وجه (الحتم المضاعف) بالمعنى الفرويدي فهذا الأخير لا يختزل في القول الظاهر بل بما يحمله معه مثلما يحمل الفكر والسلوك الوزن الآخر لذواتنا وزناً ننكره أو نرفضه.

٤ – التقسيم الثلاثي (الخيالي ، الرمزي ، الواقعي) لتركيب الذات :

عند قراءة كتابات فرويد قراءة عصرية تدخلنا فيما يقوله لاكان والذي تميز به عن الفرويديين الأمريكيين من قبل مفهومه الأساسي عن الخيالي (imaginary) هذا المفهوم ترجع جذوره إلى مرحلة المرآة التي سبق شرحها إذ تتشكل (عقدة برومينية Borromean Knot) ثلاثية العناصر وهي الخيالي، الرمزي ، الواقعي وعلى الرغم ما عمله لاكان على تعميق العلاقة بين هذه العناصر التي تنطوي على عمليات نفسية أساسية ، غير أنه لم يوضح الكيفية التي يؤدي بها الخيالي وظائفه .

يمكن فهم فكرة الخيالي بالرجوع إلى أحدى ارصانات لاكان النظرية الخاصة بمرحلة المرآة ، إذ يقيم تصوره للخيالي على أساس من الأنا العاكسة specular ego في مرحلة المرآة ويتضمن علاقة نرجسية بالذات ، أي أن أنا صغير الإنسان تتكون من صورة الشبيه (الأنا المرآوي) يسبب عدم اكتمال النضج البايولوجي . (لابلانش وبونتاليس ، ١٩٨٥، ص٢٤١) (كيرزوبل، ١٩٨٥، ص١٥٩) .

فينمو الخيالي من خبرة الرضيع بالأنا المرآوية ويمتد بعيداً إلى خبرة الراشد بالآخرين وبالعالم الخارجي . فهذه العلاقة تصبح مكوناً من مكونات الوهم Fantasy ، فكل سلوك وكل علاقة خيالية محكوم عليها تبعاً للاكان بالتحول إلى نوع من الوهم . (كيرزوبل، ١٩٨٥، ص١٦٠) (لومير، ١٩٨٨، ص١١١) (بوبي، ١٩٩٩، ص٩٥) .

هذه العلاقات الثنائية الطفل والجسم الآخر (وهي الأم) مقدرة لها أن تستسلم إلى تركيب ثلاثي يحدث عندما يدخل الأب ويمزق هذا المشهد المنسجم فيمثل الأب القانون وهو الحظر الاجتماعي الذي يعكر على الطفل علاقته الشهوانية بأمه ، فيرى في شخص الأب وجود شبكة عائلية واجتماعية أوسع ويكون الطفل جزءاً منها كما أن دوره الذي يجب أن يلعبه هناك قد حُدد له

مسبقاً ووضع له بممارسات المجتمع الذي وضع فيه . ويُبعد ظهور الأب الطفل عن جسد أمه فيدفع الطفل برغبته سراً إلى اللاوعي من هنا يتوافق ويتزامن الظهور الأول للقانون (الأب) مع تفتح الرغبة اللاواعية . يبدأ الطفل يكبت رغبته الأثمة (عقدة أوديب) في حالة شعوره بالمنع الذي يرمز إليه الأب . ولكي تظهر حالة عقدة أوديب إلى الوجود يكون الطفل قد أدرك الفروق الجنسية ودخول الأب هو الذي يحدد هذا الفرق الجنسي (ذكراً أو أنثى) يستطيع الطفل أن يصبح اجتماعياً . تكمن أصالة لاكان في إعادة كتابة هذه العملية التي رأيناها لاحقاً في مفهوم اللغة . فالطفل الذي يتأمل نفسه في المرآة كدال والصورة التي يراها المدلول هذه الصيغة تعكس الأشياء نفسها من دون انقطاع بعضها مع البعض الآخر من دون أن تحدث انقسامات فهو عالم كمال بالنسبة له لا يوجد كياناً مشوهاً في مدلول صورته المنعكسة غير أن اللغة ونموها عند الطفل ودخول اسم الأب يكتشف الاختلاف الجنسي . يتعلم بلا وعي منه أن للرمز (الإشارة اللغوية) معنى يختلف من الرموز الأخرى وتحل اللغة محل الأشياء بأسلوب مجازي ، كما يتعلم الطفل وبلا وعي عالم العلاقات الجنسية حيث يتخذ مكاناً حددتها العائلة له . وعلى الطفل أن يتخلى عن الروابط القديمة التي تربطه بجسد أمه فيدرك ذاته على أساس التشابه والاختلاف مع الأشخاص المحيطين به وبعد قبول ذلك يتحرك الطفل من جدول الخيالي إلى النظام الرمزي The symbolic order وهي الأدوار الاجتماعية المسبقة والعلاقات الجنسية التي تكوّن العائلة والمجتمع وبهذا يتغلب الطفل على عقدة أوديب . (أيغلتن ، ١٩٩٢، ص١٨٠-١٨٢) (لومير، ١٩٨٨، ص١١٢) .

أن النظام الرمزي يدل على نظام الظواهر التي يتعامل معها التحليل بعدّها مبنية كلغة . ويقصد لاكان باستخدام الرمزي إلى تقريب بنية اللاوعي من بنية اللغة وكيف أن الشخص ينغمس في نظام رمزي سابق وجودة . فمن خلال مصطلح الأب الرمزي أو (اسم – الأب) يُبين لاكان سلطة لا تقبل الاختزال إلى تحولات الأب الفعلي الخيالي وإنما إلى سلطة لسن القانون . (لابلانش

وبونتاليس، ١٩٨٥، ص٢٦٧) (مجلة العرب والفكر العالمي، ١٩٨٨، ص٩٧). والرمزي يقتحم الخيالي وينظمه ويوجهه ويجبره على الحركة . (Pyle, 1997, . 24) .

أن الدخول إلى اللغة معناه الانفصال عما يدعوه لاكان الواقع الذي لا يمكن بلوغه وهو البعيد عن المتناول وعن المعنى فعند انفصال الطفل عن جسد أمه لن يستطيع الحصول عليه حتى لو أفنى حياته فيكتفي بالأشياء البديلة فيتحرك من مجاز إلى مجاز من دون أن يستطيع استرجاع الذات الكاملة (في المرحلة الخيالية) ويتم استبداله بعلامة وهي عملية توسط تحقق الذات عبرها تباعداً عن المعيش يتيح لها أن تعرف موضعها بعدّها ذاتاً متميزة عما يحيط بها ، ولنذكر مثالاً حول الطفل الذي تتركه أمه حيث يتوصل إلى التغلب على الواقع الذي أصبح مظلماً بفعل غياب الأم من خلال استبداله برمز ، وكما ذكرنا سابقاً أن لعبة البكرة تمثل ميلاد اللغة واستقلاليتها عن الواقع . وتسمح لنا أن نفهم كيف أن اللغة تباعدنا عن الواقع المعيشي بترميزها ، فالرمز البكرة تحل محل المعيش الأصلي لغياب الأم وهي تعوض وضمن الوعي برمز لغوي (منصرفة ، هنا) (أيغلتن، ١٩٩٢، ص١٨٣) (بويي، ١٩٩٩، ص٩٦) .

أن ثلاثية النظام النفسي الرمزي ، الخيالي ، الواقعي التي كان لها دور خلاق في تفكير لاكان ، يقارن بدور ثلاثية الهو ، الأنا ، الأنا الأعلى عند فرويد، أن أنظمة لاكان الثلاثة وأقسام فرويد تستخدم للقيام بالدور ذاته في العمل التحليلي ، إلا أنه من المستحيل وضع مصطلح مقابل الآخر ، ذلك لأن أنظمة لاكان يمكن أن نفكر بها بتغير مستمر في مناقشاته بدلاً من التفكير فيه كنظام ثابت .

الاستنتاجات :

مثلت عودة لاكان لدراسة فرويد منعطفاً جديداً في فلسفة التحليل النفسي فقد أضاف مصطلحات من علم اللسانيات الحديث ، شكل بها آلية جديدة في تفسير خطاب المريض والخطابات الثقافية الأخرى . كما أنه لم يكن منفصلاً عن روح التحليل النفسي وفلسفته ولكن بحلقة أخرى وإنجازاً إبداعياً سُجل بأسمه مضيفاً بعداً آخر في دراسة التحليل النفسي .

فضلاً عن كل ما سبق اشتملت رؤية لاكان للتحليل النفسي استقطاباً لعدة تيارات فلسفية وعلوم إنسانية جعلت نظرته أكثر ثراءً وتعمقاً مازجاً تلك التيارات ومشكلاً منها نسقاً فريداً .

أما بخصوص أهم الاستنتاجات النظرية التي خرجت بها الباحثة في بحثها الحالي فتتلخص :

١ - المرحلة المبكرة من نمو الطفل يكون فيها غير قادر على التمييز بين نفسه والعالم الخارجي وهي المرحلة قبل الأوديبية وتسمى الخيالي إذ يحتاج الطفل فيها إلى مركزية الذات .

٢ - يقوم الطفل بإجراء التطابق الخيالي مع الأشياء يبدأ ببناء الأنا وهي عملية نرجسية تُدعم شعوراً خيالياً للعثور على شيء في العالم يستطيع التماثل معه وهي مرحلة المرآة .

٣ - التركيب الثنائي (الطفل ، الأشياء) يكون ثلاثياً عندما يدخل الأب (القانون) فيدفع الطفل برغبته سراً إلى اللاوعي وبهذا يتزامن الظهور الأول للقانون مع تفتح الرغبة اللاواعية .

٤ - يصبح الطفل اجتماعياً مع استخدام اللغة أو الرمز الذي يفترض مسبقاً غياب الشيء الذي تشير إليه ، وتحل اللغة محل الأشياء (النظام الرمزي) يتغلب الطفل على عقدة أوديب .

٥ - اللغة تتزامن مع أول كبت يشكل اللاوعي .

٦ - يبحث الطفل عن تعويض لما كان يمتلكه (جسد أمه) بالانتقال من دال إلى آخر مع سلسلة لغوية غير محددة من الدوال ومن هذه السلسلة تنشأ المعاني أي المدلولات .

٧ - الحركة اللافقهية من الدوال هي الرغبة والتي تنبع من نقص ، تعمل لغة الإنسان بالرمز للدلالة عليه فيصبح الفرد فريسة رغبته .

٨ - الدخول إلى اللغة معناه الانفصال عن الواقع (الرغبة الأولى) التي تقع خارج نطاق النظام الرمزي فتتحرك من مجاز إلى مجاز من دون أن تسترجع الذات الكاملة (كما في مرحلة الخيالي) .

٩ - اللاوعي عبارة عن حركة مستمرة ونشاط من الدوال التي لا يمكن بلوغ مدلولاتها لأنها مكبوتة وبهذا فأن الحديث أو النص المبهم لا يمكن قراءته لأن أسراره النهائية يجب أن تفسر وهي في حقيقتها زلات اللسان.

المصـــــادر :

المصادر العربية:

١. إبراهيم ، زكريا ، مشكلات فلسفية (مشكلة – البنية) ، مكتبة مصر ، بدون سنة .

٢. أفاتز ، دالان ، سرد تاريخي بأهم الأحداث في حياة جاك لاكان ، المشروع القومي للترجمة ، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم . المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ١٩٩٩ .

٣. أيغلتن ، تيري ، مقدمة في النظرية الأدبية ، ترجمة إبراهيم جاسم العلي، مراجعة د. عاصم إبراهيم الياس ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٢.

٤. بويي ، مالكولم ، لاكان والعودة إلى فرويد ، المشروع القومي للترجمة إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ١٩٩٩ .

٥. حب الله ، عدنان ، من فرويد إلى لاكان ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨ .

٦. شملا، فيليب ، لاكان واللغة ، مجلة بيت الحكمة ، العدد الثامن ، مجلة مغربية في العلوم الإنسانية ، ١٩٨٨ .

٧. فورستر، جون، المحلل النفسي والكلمات ، المشروع القومي للترجمة ، إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ١٩٩٩ .

٨. كيرزويل ، أديث ، عصر البنيوية ، ترجمة جابر عصفور ، منشورات ، آفاق عربية ، بغداد ١٩٨٥.

٩. لابلانش، جاك ، وبونتاليس ، ج.ب ، معجم التحليل النفسي ، ترجمة د. مصطفى حجازي ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ١٩٨٥ .

١٠. لومير، أنيكا ، استعمال لاكان للمعطيات اللسانية ، مجلة بيت الحكمة ، العدد الثامن ، مجلة مغربية في العلوم الإنسانية ، ١٩٨٨ .

١١. ليبين ، فاليري ، فرويد التحليل النفسي والفلسفة الغربية المعاصرة، ترجمة زياد الملا ، مراجعة تيسير كم نقش ، دار الطليعة الجديدة ، الطبعة الأولى ، سوريا ، دمشق ، ١٩٩٧ .

١٢. مجلة العرب والفكر العالمي ، حركة سرج انطوانيت لاكان ، العدد الرابع ، ترجمة جورج أبي صالح ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ١٩٨٨.

١٣. مجلة الفكر العربي المعاصر، لاكان واللغة ، العدد الثالث والعشرين ، ١٩٨٣ .

المصادر الأجنبية :

1. **Role, P. Problematic self inkier kegaard and freud , New Haven, London , 1971 .**
2. **Pyle, Charles, On the Duplicity of Language , Lacaun's Theory of Language , 1997 .**
3. **Weisman A The existential core of pychoanalysis: reality, sense and responsibility , Boston, 1965.**